الخيار الاستراتيجي في السودان عن طريق المصالحة

عرض كتاب *

د. عبدالله صالح

سطر البروفيسور محمد ولد لبات هذا الكتاب ونشره بثلاث لغات: العربية اللغة الأم والفرنسية التي تزاحم العربية ثقافة وحضارة بين أهله وفي بلاده موريتانيا؛ واللغة الإنجليزية المتداولة في أروقة مفوضية الاتحاد الأفريقي الذي بعثه وسيطا لتعبيد طريق المصالحة وبالتالي لتيسير طريق السلم الاجتماعي في السودان عقب اندلاع ونجاح الثورة الشبابية السلمية /الأسطورية في القضاء على حكم نظام الإنقاذ و الرئيس المخلوع عمر البشير الموجود حاليا في سجن كوبر الشهير. وقد استهدف القراء في هذه العوالم الثقافية المحاطة لهالة العولمة ليبعث رسالة خطية محددة المعالم وغير محدودة الدلالات من وعن ثورة وشعب وسودان وادي النيل : التاريخ والحدث والإنسان والحديث.

وقبل أن نخوض في متن الكتاب ومحاولة عرضه لا بد من طرح حزمة أسئلة حارقة لفتح شهية القراء من جهة وللتوسع بالقراءة والتأويل الضروريتين لمحاولة فهم الكتاب باعتباره نصا منفتحا على أكثر من حقل وفهم وتأويل. فنقول : كيف ولماذا نفذ أو انغرس الاتحاد الأفريقي في المشهد السياسي السوداني الموار في خضم/حمأة الثورة التي انفجرت كالبركان في شوارع العاصمة القومية الخرطوم في ديسمبر 2018م هل بدعوة من طرف داخلي محدد بعينه ؟ أو من طرف دولي محدد باسمه وحقه ؟ أم بتعاطف جمهوري إفريقي له أعماق وأبعاد إقليمية كانت أم دولية ؟ وهل كان الغرض والهدف هو إشفاق من إجهاض الثورة واستشراء العنف في السودان ودول الجوار؟ أم هو إجلال للثورة والثوار؟ وهل قرأت أو لمحت أو استشرفت مفوضية الاتحاد الأفريقي ملامح نجاح الثورة في اقتلاع نظام الإنقاذ في بلد يستحق المناصرة فهبت للمساهمة في تقنين وتقعيد الأوضاع بمشروع مصالحة تمهد لفترة انتقالية وديمقراطية مستقبلية ؟ هل تقبلت الأطراف السودانية مبدأ الوساطة وحضور وشخصية الوسيط والمبادي والقيم والنهج والمسارات والتوقعات التي طرحها صمن أوراق اعتماده ؟ وهل نجح الوسيط في الجمع – اعترافا وتفاوضا – بين قوى الحرية والتغيير الجامعة لقوى الثورة السودانية وبين "منظومة الأمن والدفاع" التي نحت مصطلحها وقنن حضورها القوي في متن الكتاب وفي قلب الوساطة في المشهد المحلي؟

استهل البروفيسور عمر كوناري رئيس جمهورية مالي الأسبق / رئيس مفوضية الاتحاد الأفريقي الأسبق تقديم الكتاب بالحديث عن السودان : البلد العريق الخارج لتوه – ممزق الأوصال – من سلسلة طويلة من المحن ، بحسبه ، كان آخرها في العام 2011م حين انفصل عنه الجنوب ليشكل دولة قائمة بذاتها. وقد تحدث واصفا بتكثيف دبلوماسي مقصود شخصية الكاتب/ البروفيسور محمد ولد لبات : الخبير الوسيط الميسر والمسهل والمبعوث الخاص لمفوضية الاتحاد الإفريقي ؛ الذي نجح بفضل حنكته وتجربته وروح المسؤولية لديه في التغلب على صعوبات التأقلم مع التباين والنشطي والمفارقات؛ وفي مقاربة دربه في

الوســاطة حتى (...) تقمص ببراعة واقتدار عباءة الســارد/القاص ليروي لنا الحكاية المثيرة لتلك الوســاطة بأسلوب سلس بسيط لكنه شائق . ويستطرد كوناري تقديمه بتقييم حاذق للكتاب حين يصفه بأن النهج والكتاب " يشكل إسهاما قيما في ترسيخ المذهب الأفريقي للوساطة ومرجعا عمليا للاستفادة من تجربة تطبيقية على أرض الواقع ." يقصــد بذلك الإضــاءات النظرية والمفاهيمية والمنهجية المتراكبة التي يقدمها الكاتب والكتاب في هذا المسار التاريخي الثوري السوداني المندمج بكلياته في الزمن الأفريقي والزمان العالمي والعولمي.

ومن المهم أن نشـير في مسـتهل هذا العرض إلى أن البروفيسـور لباد الوسـيط الأفريقي قد جاء إلى الخرطوم مسلحا برصـيد معرفي ومعنوي وسـيع وغني : قراءات أكاديمية فاحصـة للتاريخ السـياسـي والثقافي والاجتماعي للسودان وإنصات واع لجدلية التركيب التي تمور وتحتدم في قلب المشهد الراهن وخبرة دبلوماسية بالنزاعات وكيفية الدخول فيها والخروج منها بترتيبات تمهد لزوما للتفاوض والسلام أو الوفاق؛ وإرادة شخصية حديدية معززة بحســـن النية وفوق هذا كله ومن بين أيديه ومن خلفه قوة دفع الاتحاد الأفريقي والمفوضـــية الراغبين جميعا في ترجيح كفة المنظمات الإقليمية في تدبير الشأن الإفريقي لتجسير مشروع الشراكة الجديدة من أجل أفريقيا. وهذا بحق هاجس استراتيجي يشكل قوة دفع دينامي للنجاح.

أوضح بروفيسور لباد الكاتب/الوسيط في الفصل الأول من الكتاب أسباب النزول التي جاءت بالاتحاد الإفريقي عموما والمفوضـية خصـوصـا للدخول في حمأة الشـأن السـوداني الموار عشـرة أيام فقط ومباشـرة بعد سـقوط نظام الاتقاد واعتقال الرئيس المخلوع البشـير وسـط غليان الشـوارع بملايين الشـباب والمتاريس التي أغلقت مداخل ومخارج العاصـمة والتوتر المشوب بالحذر من انفجار الأوضـاع إذا ما حدث أي اصـطدام بين العسـكر والشـباب الثوار المعتصـمين أمام القيادة العامة للجيش الخرطوم . وقد شـكل قرار الاتحاد الأفريقي بالضـغط على اللجنة الأمنية للقوات المسـلحة التي اسـتولت على السـلطة بضـرورة إعادتها للمدنيين حلال خمسـة عشـر يوما حسـب نص القرار رقم 854. وقد نجحت مفوضـية الوسطاء الإفرقية في تمديد المهلة إلى ثلاثة أشهر لإفساح المجال لمفوضية الأمن والسلم بالاتحاد الأفريقي لإيجاد حل عاجل وحازم . ولا ولم يتهيب الكاتب/الوسيط من جسامة وعظم المسؤولية نظرا – بحسبه – إلى عظمة السودان الإنسان والمجتمع والدولة.

اسـتعرض المؤلف في مسـح جغرافي– سـياسـي وبنظر ثاقب تفاصـيل المشـهد السـياسـي والعسـكري والأمني في البلاد . وقد كان حصـيفا جدا في اسـتعراضـه الذي انطوى على تشـخيص دقيق للحالة الراهنة للوقوف على العلل والأســباب والكوابح والمعارضـــات والمواقف والتكتلات وغيرها من معالم الطريق الواجب التوقف عندها قبل الانطلاق في مســاعيه لخلخلة الأوضـــاع . والخلخة نهج اســتراتيجي إن لم تكن هي اسـتراتيجية في حد ذاتها . وقد كان يراقب بحذر بالغ التحركات التي تجري في خضـم الشـارع الثوري المتقد؛ كما كان يقر– بنظر فاحص – تغير تركيبة المجلس العسكري الانتقالي بعد استقالة رئيسه الفريق أبن عوف وتقديم الفريق البرهان وهو أمر يبعث العديد من الرسائل والكثير من الدلالات الصادرة عن المؤسسة العسكرية

والنظام الأمني والدفاعي برمته في حمأة الوضـــع المواز؛ وخاصـــة بعد الظهور المفاجئ والقوي لقوات الدعم السريع في المشهد العام . وأيضا بعدما تأكد للجميع دورها الحاسم في قلب كفة الميزان لصالح قوى الحرية و التغيير وسـقوط نظام البشـير. ولنسـتخلص من كل هذا نجاح الوسـيط في تحديد المعالم الجوهرية للمكونات الأسـاسـية في التركيبة الراهنة : قوى إعلان الحرية والتغيير بتشـكلاتها السـياسـية والنقابية والمجتمع– مدنية ذات الطبيعة المتشـــعبة من جهة؛ و المكون العســـكري والأمني بتركيبته المتينة من جهة أخرى . ولم يغفل الكاتب / الوسـيط أن يذكر الحضـور القوي والمتوتر للحركات المسـلحة التي أقضـت مضـاجع نظام الإنقاذ خلال عقدين من الزمان وأدخلت البلاد في حروب حدودية وعرقية وقبلية ودفع الكل ثمن الحصـــار الدولي بسبب من انتهاكات حقوق الإنسان أو العنف والتقتيل أو غيرها من الأسباب التي جعلت السودان يحتل موقعا غريبا عن تاريخه حين أصبح "أكثر البلدان الأفريقية انتشارا للأسلحة الفردية من شتى الأنواع".

نجح الوسـيط – بادي الرأي – في تحديد المعالم المنهجية والضـرورية جدا لإقرار الاسـتقطاب الثنائي اللازم لتحديد معالم ومسارات الوساطة في المشهد السوداني المتشظي. وقد حزم أمره وحسم اختياره في حصر التفاوض بين قوى إعلان الحرية والتغيير ومنظومة الدفاع والأمن. وشـبه الأمر تشـبيها شـاعريا بليغا بعودة المياه إلى مجاريها الطبيعية في التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق " لينسابا بهدوء في اتجاه واحد على طريق المصـالحة." وبرر موقفه واختياره حين أوضـح أن " هاتين القوتين قد تعاضـدتا في إسـقاط النظام المخلوع . ومن المؤكد أن لهما الفضـل في العمل – إلى حد بعيد – على بعث قوى عسـكرية ومدنية وفكرية وتجميعها لتنصهر في بوتقة الثنائي المقدس : المجلس – الإعلان ". وقد كان الكاتب / الوسيط واعيا بهذا الاختيار من موقعه كممثل للاتحاد الإفريقي الذي كانت صورته قبيحة بل مشوهة في المشهد السوداني بسبب من تطاير أوراق ومعلومات عن تعامله وعدم حياده وعلاقاته المشبوهة مع نظام البشير والإنقاذ. و فرض عليه هذا كله الانشـــغال بأكثر من طاقته وبأكثر من أســـلوب وقناة لإعادة الثقة للمتفاوضـــين والرأي العام من جهة ؛ ولمحاصـرة الأجندة الدبلوماسـية المتناثرة في السـودان بالأغراض والأهواء من جهة أخرى . فما هو السـبيل الأمثل لإنضـاج الوسـاطة في هذا البحر الخضـم من الشكوك والصـعوبات والمتاريس والتصـريحات والبيانات والإشاعات المغرضة؟

في فصل تالي أوضح الكتب منهجية "إنضاج الوساطة" التي استثمر فيها ثقته بنفسه وخلفيته الأكاديمية وخبرته الدبلوماسية التاريخية والمعرفية والروحية لتوضيح وتفسير وتأويل حقيقة مذاهب الوساطة وكنه طرائقها وسبل أجرأتها التي تعترف كلها بأدلة العقل والمنطق وبضـرورة الإنضـاج المتقن مهما كلف الأمر بحسبه من جهد و وقت. فكل عملية وسـاطة تسـتلزم طابعا حيويا لإنجاح العملية متمثلا في أحد أبعادها الأسـاسـية ألا وهو توعية الأطراف وبناء الثقة وتعزيز الإرادة و وضـع معالم على الصـعيد النظري والفكري والمنهجي . وقد

استفاض في توضيح المعالم والمؤشرات والعبر والدلالات الحكمية التاريخية التي ستفاد من مراجعته الدقيقة لمسارات ودروس و وساطات الآباء الروحيين ورموز في الحكم الإفريقي وشؤون السلطة والفكر؛ مثل نايريري ومانديلا وماسيري. وكشف بروح رياضية وتواضع بديع عن الطريق الطويل والخطير للمفاوضات السرية منها والعلنية والتي أدت إلى تطويل وتمطيط عمر الوساطة في بعض المواقف والمنعطفات حتى إنه : ضحى بتقليص ساعات نومه و... وانتهى إلى زيارة المستشفى مرتين وحذره الطبيب ووجه مساعديه بمصادرة هاتفه حفاظا على صحته. ويبدو أن حصر التفاوض الذي نجح في التحول به ومعه إلى شكل منهجي للحوار المثمر بين طرفين أساسيين فاعلين؛ قد يسر له السبيل الأمثل لإنضاج الوساطة من جهة؛ وللسير قدما نحو ترتيب وتقعيد الأسس والضوابط والحصيلة والنتائج المتوقع التوصل إليها. وقد سجل بارتياح نفسي ودبلوماسي قبول الطرفين: المجلس العسكري وقوى الحرية والتغيير لصيغة وتركيبة المفاوضات؛ وخاصة بعدما تأكد لخما بارتياح أن هذه الصيغة سوف تقصي حضور أي طرف أو مجرد شبهة طرف من ممثلي النظام المخلوع . وقد غمض هذا التشدد في الاختيار لهذا النهج التفاوضي الحصري حق العديد من الشخصيات والوسطاء ومنظمات المجتمع لمدني وبعض الأحزاب الصغيرة ، والأخطر: الحركات المسلحة التي انضوت تحت لواء الجبهة الثورية والتي تمتلك سجلا تاريخيا في مناهضة النظام المخلوع .

لخص ولد لبات في مقطع صغير الهدف الاستراتيجي السياسي والإعلامي لكتابه، حين قرر بحزم قائلا " ليس الهدف التاريخي سرد قصة شخصية قد لا تهم القارئ كثيراً، بل الهدف الذي نسعى إليه هو التأكيد على النتيجة الباهرة التي كان لها صدى في المنطقة وفي القارة الأفريقية والعالم، والمتمثلة في اتفاق السابع عشر آب/أغسطس 2019م في الخرطوم " ويتجسد الهدف النجاح في التوصل – بتفويض من مجلس السلم والأمن الأفريقي في سبيل إرساء المركزية الإفريقية – إلى صيغة اتفاق بين السياسيين يكفل إقامة حكم انتقالي يتولى فيه المدنيون الريادة ." ويستند كل هذا الأمر على "المبدأ المقدس الذي يقتضي بأن تسوى مشاكل الإفريقية بأنفسهم ". ويستطرد في موقع آخر " علي أن أعترف دون أي مجاملة ولا محاباة لإخواني السودانيين أني قد تعلمت منهم الكثير في معرض مناصرتي لفكرة قبول الآخر. لم أتعلم منهم فحسب، بل إني كذلك عرفت عنهم الكثير حتى إنهم – وهذا ما يجب علي الإقرار به – عرفوني بنفسي، بمحدودية قدراتي ومواطن ضعفي، خلال الاجتماعات الماراثونية التي عقدتها معهم بدرجات متفاوتة ." وعزز الوسيط اجتهاده بتسجيل الحضور والتشجيع الذي تلقاه من ثلاثة تكتلات داخل السودان : مجموعة الوساطة الأفريقية ومجموعة السفراء الأفارقة المعتمدين بالخرطوم والسفراء العرب غير الأعضاء في المجموعة الأفريقي وتنضاف إلى هذا كله الوساطة الوطنية متمثلة في شخصيات رمزية ومجموعات ومنظمات ساهمت في تفعيل مجهوداته .

استعرض الكاتب في فصل جديد مسارات الوساطة بعد إنضاجها، وقدم الكثير والمثير من المعلومات الحاوية للدقائق والحقائق والعقبات والمزالق والمثبطات وغيرها من الكوابح؛ التي تقف مع رفيقه المبعوث الأثيوبي الخاص السفير محمود درير والسفير محمد بن يعيش رئيس بعثة الاتحاد الأفريقي بالخرطوم، في تجاوزها بحنكة ومهارة وصبر أيوبي منيع وفريد في بابه . وكاد الإعداد للإعلان الاتفاق المرحلي يفشل بعدما قامت قوة عسكرية بفض اعتصام الثوار أمام القيادة للجيش لمنتهى الوحشية في الثالث من يونيو 2019م؛ حيث استشهد عدد كبير من القتلى المدنيين وتفرق الجرحى هاربين أو مفقودين حتى تاريخه. وطفت أو غرقت عدد من الجثث على سطح وضفاف وأعماق النيل في مشهد وظروف روعت الضمير السوداني والإنساني العالمي. ولم تظهر حتى اللحظة تفاصيل تقرير لجنة التحقيق التي شكلتها الدولة للكشف عن حقيقة ما جرى وتحديد الجهات المسؤولة عن ارتكاب هذه الجريمة التي استوقفت مسار التفاوض والحوار. كل هذا وسيف الوقت مسلط على رقبة الوسيط الذي كان ينافخ لتدارك الأمر قبل نفاذ المهلة الزمنية التي حددها الاتحاد الأفريقي من جهة ؛ وقبل ارتداد وانزلاق البلاد برمتها في مستنقع العنف والتمزق والحروب التي تنذر بشر مستطير توسع الكاتب السفير عنده مرارا في التحذير من العراقيل والنتائج في ثنايا السرد بالكتاب.

تم الإعلان في شهر أغسطس عن الاتفاق السياسي بين قوى الحرية والتغيير والمجلس العسكري في مؤتمر صحفي بعد جهد جهيد كتتويج للحوارات والمفاوضات الماراثونية . وترتب عن هذه الخطوة الشروع في خطوة قانونية أهم وأعتى وهي الإعلان أيضا عن صياغة الوثيقة الدستورية لنظام الحكم وتنسيق العمل بين السلطات الثلاث في الدولة : السيادية و التنفيذية والقضائية خلال الفترة الانتقالية؛ على أساس نظام برلماني سبق للبلاد أن جربته في الماضي القريب.

إن اهم ما يميز هذا الكتاب هو التحليلات الحاوية لبعض الآراء والانطباعات العاطفية والمواقف الذاتية الأشبه – بلغة كرة القدم – بالتمريرات (البينية) الذكية الحاوية لرسائل ذات مواصفات سياسية وتوصيات وتذكارات وحكم وقسط من المواعظ التي سطرها الكاتب/ السفير/الوسيط بعقل نابه وحدس ذكي وحس أمني وبعد نظر دبلوماسي وذوق أكاديمي رفيع؛ يسمح للقارئ الفطن بالتوقف مرارا وتكرارا عند المحطات والمواقف والرهانات وكذا التحديات، التي تجول عندها وبها وفيها قطار الحوار والتفاوض بالوسيط الأفريقي: من أجل بلوغ الهدف الأسمى المناط بشخصه الرسمي .

كان ميلاد الاتفاق السياسي هو الإعلان لحقيقي لنجاح خيارات ومواقف ومبادئ وأهداف الوساطة الأفريقية وبالتالي لمنهجية " الشراكة الديناميكية " بين مكونات المجتمع السوداني بتشكلاته المتنوعة والمتعددة؛ وبين تدخلات واختيارات ومواقف وتوجهات وحسابات الشركاء الإقليميين والمجتمع الدولي بصفة عامة.

"إن هذا الدرس الذي تعطيه التجربة السودانية للعالم يستحق أن ننحني إجلالا له وأن نتأمله بتأن عندما نحاول حل أزمات مستقبلية ". ويستطرد مستخلصا ومختتما " في هذا الصدد تبدو الدروس المستخلصة من

الوســاطة الأفريقية – بايجابياتها وســلبياتها – جديرة بالاعتبار لأكثر من ســبب. وتملي علينا النزاهة الفكرية واجب التطرق إليها ومساءلتها والإصغاء إلى همساتها المعبرة ".

انتهى

عرض/د. عبدالله صالح سفيان

باحث

***محمد الحسن ولد لبات – السودان على طريق المصالحة – دار عزة للنشر – الخرطوم – الطبعة الأولى 2020م.(423 صفحة)**